

سُورَةُ النُّوْرِ

مدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، من جوامع سور القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي أوحينا بها إليك يا محمد في هذا الكتاب العزيز ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وإنما قال ذلك، لأن أكثر ما في هذه السورة، من باب الأحكام والحدود ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا﴾ في تضاعيف السورة ﴿آيَاتٍ﴾ التي نيّط بها الأحكام المذكورة ﴿يَبَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على أحكامها، وتكرير الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات، الزانية

هي المرأة المطاوعة للزنا، لا المزنية بها كرهاً، وتقديمها على الزاني لأنها الأصل في الفعل، بكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع^(١) ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عاماً في حق المحصن وغيره، وقد نسخ في حق المحصن قطعاً، لأنه ﷺ رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة، وروي عن علي رضي الله عنه قال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ» والجلد ضربُ الجلد بالسوط ونحوه، وفيه إشارة إلى أنه لا يُبالغ فيه، والخطاب للأئمة، لأن إقامة الحد من الدين، وهو على الكل، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم، أو من يوكله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي رحمة ورقة في طاعته، وإقامة حدّه، فتعطلوه أو تسامحوا فيه، وقد قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت رسول الله سرقَتْ لقطعْتُ يَدَهَا»^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهيج، فإن الإيمان يقتضي الجِد، في طاعته تعالى، وذكُرَ اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب، في مقابلة المسامحة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا﴾ أي لتحضره زيادة في التنكيل، فإن التّفصيح قد ينكّل أكثر مما ينكّل التعذيب ﴿طَائِفَةٌ﴾ المراد به جمع يحصل به التشهير ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أقلها ثلاثة، وتسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ
وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(٣) هذا

(١) فإن قيل: لم قُدِّمت المرأة في حدِّ الزنا، وأُخِّرت في السرقة ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾؟ فالجواب أن الزنى بدافع الشهوة وهي في المرأة أقوى، والسرقة من الجرأة والقوة وهي في الرجل أقوى.

(٢) هذا طرف من حديث شهير رواه البخاري.

(٣) إنما قُدِّمَ الرجل هنا ﴿الزاني لا ينكح﴾ لأن هذه الآية في حكم النكاح، والرجل هو =

حكم مؤسس على غالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزانيات، بعد زجرهم عن الزنا بهنّ، وقد رَغِبَ بعضُ ضَعْفَةِ وفقراء المهاجرين، في نكاح الموسرات من بغايا المشركين، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنُفِّروا عنه، ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغب إلا في نكاح الزانية، فلا تحوموا حوله، كي لا تنتظموا في سلكها، أو تتسموا بسماتها، فالآية في التزهيد في نكاح البغايا، وهو نظير قوله تعالى: ﴿الخبثات للخبثين﴾ ورُوي أن «مِرْثَدَ العَنَوِي» كانت له صديقة في الجاهلية، يقال لها: «عَنَاق» فلما أتاها بمكة، دعته إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حَرَّمَ الزنا، قالت فانكحني، فقال: أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأثبتُ الرسول ﷺ فقلت يا رسول الله: أنكح عَنَاقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ فنزلت الآية؟ فدعاني فقرأها عليّ وقال: «لا تَنكِحْهَا»^(١) وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، وهذا قول الضحاک ورواية عن ابن عباس، وقال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾. ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ﴾ أي نكاح الزانيات ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ما لا يكاد يليق بأحد من الأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغة^(٢).

= الأصل فيه، لأنه الراغب والطالب، فلذلك قُدِّم على الزانية، بخلاف الآية السابقة فإن فيها حكم الزانيين، والمرأة فيه هي الأصل، لأنه لولا رضاها لما حدثت الجريمة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٦ والنسائي ٦٦/٦ وأبو داود رقم ٢٠٥١ كلاهما في النكاح.

(٢) ليس في الآية ما يدل على تحريم نكاح الزاني أو الزانية، وإنما مقصد الآية تشنيع الزنى، وتبشيع أمره، بأنه لا يليق إلا بالأشرار الخبثاء، فالفاسق الخبيث الذي من =

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ بيانٌ لحكم العفائف، إذا نُسِبْنَ إلى الزنا، ويعتبر في الإحصان ههنا العفة عن الزنا، والحرية، والبلوغ، والإسلام، وفي التعبير بالرمي، المنبىء عن صلابة الآلات، وإيلام المرمى إيذاناً بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب، وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنى، بأن يقول يا زانية، أو زנית، أما التعريض كقوله: «أمّا أنا فما زينتُ وليست أُمّي زانية» فليس بقذف، وعدم التصريح للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزواني، ووصفهن بالإحصان، كأنه قيل: والذين يرمون العفائف بالزنا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به ﴿ فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ لظهور كذبهم وافتراءهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن حكم رمي المحصنين كذلك، لشيوع الرمي فيهن، والتهمة لهن أشنع وأبشع ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً ﴾ أي وزيدوا في عقوبتهم بعدم قبول شهادتهم، هدرًا لكرامتهم، والغرض منه الزجر، لأنه مؤلم للقلب، وقد آذى المقدوف، فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وفاقاً ﴿ أَبَدًا ﴾ مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لأنه تنمة الحد، كأنه قيل: فاجلدوهم، وردّوا شهادتهم، فبقي كأصله ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع، وهو مقرر لما قبله، ومبين لسوء حالهم عند الله عزّ وجل.

= شأنه الخبث والزنى، لا يرغب في نكاح الفاضلات الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة نجسة، والفاسقة الخبيثة الزانية لا ترغب في نكاح الرجال الصلحاء الأفاضل، إنما ترغب في فاسق فاجر مثلها، وكما قيل: «إن الطيور على أشكالها تقع» وإذا زنى شاب ثم تاب وأراد الزواج بمن زنى بها سترًا عليها، فقد سئل عنها ابن عباس فقال: «أوله سفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يحرم الحلال» فأفتى بجواز النكاح بالزانية، وبه أخذ الجمهور.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من الفاسقين، كما ينبيء التعليل الآتي ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ذلك الذنب العظيم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم التي من جملتها ما فرط منهم بالتلافي، ومنه الاستحلال من المقدوف ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فحينئذ لا يؤاخذهم الله بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين، وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي، وجعل الأبد عبارة عن مدة القذف، فتنتهي بالتوبة، فتقبل شهادته.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ جعلوا من جملة الشهداء، إيداناً بعدم إلغاء قولهم بالمرة، وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم، في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي شهادة واحدٍ منهم ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَالْخَمْسَةَ﴾ أي الشهادة الخامسة، التي هي في مقابلة التزكية للشهود، وفيها تحقيق الخبر، وإظهار الصدق من الكذب، والبرُّ في هذه القضية الخطيرة، بأن يقول في المرة الخامسة ﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الزوج حُبست الزوجة، حتى تعترف أو تلاعن، والحكمة من هذا التشريع الخاص بالزوجين، أن الرجل إذا رأى من زوجته ما يريبه، أو رأى معها أجنبياً، فإن قتله عوقب، ولا

يمكنه الصبر، وطلب البيّنة منه في مثل هذه الحالة متعذر، فلذلك شرع اللعان بين الزوجين، صيانة للعرض والشرف.

﴿ وَيَدْرُؤُاَ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٨)

﴿ وَيَدْرُؤُاَ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الرجم ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي تقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا.

﴿ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٩)

﴿ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ ﴾ الزوج ﴿ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيما رماني به من الزنا، وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء يستعملن اللعن، فربما يجترئن على التفوّه به، لسقوط وقعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى، وسبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي، أن عويمر العجلاني جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: رأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقته أم كيف يفعل، فقال ﷺ: «قد أنزل الله تعالى فيك وفي صاحبك قرآناً، فاذهب فأت بها، قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ»^(١) والفرقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد، ولا تقع الفرقة حتى يفرّق القاضي بينهما، وعند أبي يوسف وزفر والشافعي هي فرقة بغير طلاق، توجب تحريماً مؤبداً.

(١) أخرجه البخاري ٣٢١/٩ في الطلاق ومسلم رقم ١٤٩٢ في اللعان.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ متروك الجواب للتعظيم، أي لفضحككم، وعاجلكم بالعقوبة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ أي مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم في موضوع اللعان، لأنه تعالى لو لم يشرع اللعان لهم، لوجب على الزوج حدُّ القذف، مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدهما شرع لهم ذلك، لو جعل الله شهادته موجبة لحد الزنا عليها، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه، لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما، دائرة لما توجه إليه من العذاب الدنيوي، وفي ذلك من الحكم البالغة، وآثار الفضل والرحمة، ما لا يخفى، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدق حكمته!! .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ سبب نزولها ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أفرغ بين أزواجه، فأياها خرج سهمها خرج بها، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأفرغ بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق» فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، فكنت أحمل في هودج، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة، أذن ليلة فقمنا حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست

صدري، فإذا عَقَدَ لي من جِزَعِ أَظْفَارٍ - نوع من الخرز وهو حجر اليماني - قد انقطع، فرجعت فالتمسته. فحبسني ابتغاؤه، قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفافاً، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فيممتُ أي قصدتُ - منزلي، الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المعطل السلمي» قد عَرَسَ - التعريس نزول المسافر في آخر الليل - من وراء الجيش، فأدلج - والإدلج سيرٌ آخر الليل - فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني، وكان يراني قبل أن يضرب الحجابُ عليّ، فاستيقظتُ باسترجاعه - أي بقوله: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» - حين عرفني فخمّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطيء على يديها، فركبها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرّسين في نحر الظهرية، فهلك من هلك في شأني..»^(١) الحديث. قوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والمراد ما قذفت به الصديقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ المجيء، إشارة إلى أنهم أظهروا من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة منهم «عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش» ومن ساعدهم ﴿مَنْكُرٌ﴾ أي من جماعة المسلمين، وابن أبيّ وإن كان رئيس المنافقين، فقد كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ خوطب به رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعائشة،

(١) أخرجه البخاري ١٩٨/٥ في الشهادات، وفي تفسير سورة النور، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٧٠ باب حديث الإفك.

وصفوان، تسلية لهم، والضمير للإفك ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله تعالى، بإنزال ثمان عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ﴾ أي من أولئك العُصبة ﴿مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة وهو «ابن أبي» رأس النفاق فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس ﴿لَمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا أيضاً فإنهم جلدوا ورُدَّتْ شهادتُهم، وصار ابنُ أبي مطروداً، ومشهوداً عليه بالنفاق، و«حسان» أعمى وصار مشلول اليدين، ومسطح صار مكفوف البصر، وكانت هذه عقوبة دنيوية عاجلة.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٦)

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب، وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه، إلى الخائضين بطريق الالتفات، لتشديد التوبيخ، أي هلاً حين سمعتم هذا الافتراء والبهتان، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي ظنوا بإخوانهم المؤمنين الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة، وبخاصة في أهل بيت النبوة، وفيه عتاب شديد، وزجر بليغ فإن وصف الإيمان يحملهم على إحسان الظن بالمؤمنين، فإخلاقهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع، أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات، أول ما سمعوه خيراً، فإن مقتضى الإيمان ألا يصدّق مؤمناً على أخيه سوءاً، ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تردد ﴿وَقَالُوا﴾ في الحال ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر كونه إفكاً، كما يقول المتيقن المطلع على الحال. قال ابن الزبير: ذلك معاتبه للمؤمنين، إذ المؤمن لا يفجر بأمه، وعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين، فكيف بالصدّيقة بنت الصديق، أم المؤمنين، حرّم رسول الله ﷺ؟ وروي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قالت له امرأته: أما

تسمعُ ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب المكشوف، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، فقال: «فعايشةُ والله خيرٌ منك» يريد أنها بريئة وطاهرة مطهرة من الزور والبهتان.

﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلاً جاء الخائضون بأربعة شهداء، يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ الكاملون في الكذب، فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله، ولذلك رتب الحدُّ عليه.

﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للقدفة جميعاً ﴿وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو بعد التوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، والإبهام لتحويل أمره، والاستهجان بذكره، يقال: خاض في الحديث، وخاض فيه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه الجلد، لعظم جرمه.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾﴾ .

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بحذف إحدى التائين، أي لمسكم ذلك العذاب العظيم

وقت تلقيكم إياه من المخترعين له ﴿بِالسِّنِّتِكُمْ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، والتلقي، والتلقف، والتلقن، معان متقاربة، خلا أن في الأول معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف، وفي الثالث معنى الحذق والمهارة ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق، ومنشأ في القلوب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً، لا تبعة فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ والحال أنه عنده عز وجل ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره في الإثم واستحقاق العذاب، وفيه دلالة على أن لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١) وإن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، فهذه ثلاثة آثام في حادثة الإفك، علّق بها مسّ العذاب العظيم: ١ - تلقي الإفك بألسنتهم، ٢ - والتحدث به من غير تحقق، ٣ - واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(١٦).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من المخترعين أو المشيعين ﴿قُلْتُمْ﴾ تكديماً لهم ﴿مَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي ما يمكننا ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه، فإن قذف آحاد الناس محرّم شرعاً، فضلاً عن التعرض للصدّيقة رضي الله عنها ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تعجبٌ ممن تفوّه به، وتنزيه له تعالى عن أن تكون حرّم نبيّه فاجرة ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ أي زورٌ يبهت من يسمع، لعظمته في المبهوت عليه، واستحالة صدقه.

﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٧).

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ﴾ أي ينصحكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ أي يزجركم من أن تعودوا لمثله ﴿أَبَدًا﴾ أي مدة حياتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان وازع عنه، وفيه تهيج على الامتناع عن قذف المؤمنات.

﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الشرائع، ومحاسن الآداب، لتتخطوا، وتتأدبوا بها، أي ينزلها كذلك، لا أنه بينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، ولهذا شرع من العقوبة، ما يضمن الحفاظ على الأعراس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون ويفسدون ﴿أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الرمي بالزنا أو الزنا نفسه، فالمراد بشيوعها شيوع خبرها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يحبون الفاحشة في حق المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ من الحدِّ وغيره ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ من عذاب النار ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور، التي من جملتها ما في الضمائر ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه تعالى.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكرير للمنة بترك المعالجة بالعقاب، للتنبية على كمال عظم الجريمة، وجواب «لو» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كأنه قال: لهلكتم أو لعذبكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لكن الله رؤوف رحيم لا يعاجل بالعقوبة، وتغيير سبكه، وتصديره بحرف التحقيق

«أَنَّ» لبيان اتصافه تعالى بالرأفة والرحمة على الدوام، لا بيان حدوثهما بهم في هذه الحالة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ اللهُ سبْحَانَهُ مَا عَلَى أَهْلِ الْإِفْكِ، شرع بتحذير المؤمنين فقال: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تسلكوا مسالكه، في كل ما تأتون وما تدرون، من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة بالمؤمنات ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وضع موضع ضميرهما لزيادة التقرير ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي فإن الشيطان يأمركم بكل قبيح، وبما تنهى بالفضاعة والشناعة^(١) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لولا فضله عليكم بالتوفيق للتوبة والإنابة، وشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿مَا زَكَا﴾ أي ما طهر من دنسها ﴿مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي أبد الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ أي يطهر ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحمله على التوبة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في سماع الأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع المعلومات، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

(١) سَلَطَ اللهُ تَعَالَى الشَّيْطَانَ عَلَى الْبَشَرِ لِلإِبْتِلَاءِ، فَلَهُمْ تَأْثِيرَاتٌ ظَاهِرًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وباطناً قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فَبِرَحْمَتِهِ تَعَالَى لَا يَرَاهُمُ الْبَشَرُ، لَخَبِثَ صُورَتُهُمْ.

﴿ وَلَا يَأْتِلِ ﴾ أي لا يحلف، نزلت في شأن الصديق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفق على «مسطح» بعد أن تكلم في عائشة، وكان ينفق عليه، لكونه ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين ﴿ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ أي في الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصديق وشرفه ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ في المال ﴿ أَنْ يُؤْتُوا ﴾ على أن لا يؤتوا ﴿ أَوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ صفات لموصوف واحد، تنبيهاً على أن كلا منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء، أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين، شيئاً مما كانوا يعطونهم من المال والإحسان، لذنوب فعلوه ﴿ وَلِعَفْوًا ﴾ ما فرط منهم ﴿ وَلِيَصْفَحُوا ﴾ بالإغضاء عنهم ﴿ أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾؟ بمقابلة عفوكم، وصفحكم، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة، مع كمال قدرته على المؤاخذة، فلما قرأها الرسول ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه قال: بل أحبُّ أن يغفر الله لي، وردَّ لمسطح نفقته^(١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ أي العفاف بالفاحشة ﴿ الْغَافِلَاتِ ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً، ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي المتصفات بالإيمان الحقيقي، مع طهارة القلب، والمراد بهن زوجات رسول الله ﷺ الطاهرات، للتغليظ الذي ورد من ذكر اللعن في حق من قذفهن، قال ابن عباس: «هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة»^(٢). ولا ريب في أن رمي غير أمهات

(١) انظر سبب النزول مفصلاً في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».

(٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٣٠.

المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إياهنَّ، فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهنَّ كفرةً، إبرازاً لكرامتهن، وحماية لحمى الرسالة، من أن يحوم حوله أحد بسوء، فمن أذنب ذنباً ثم تاب منه، قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها، وهل هو إلا لتحويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفر غليظ، ولهذا قال ﴿لَعْنُوا﴾ أي بما قالوه في حقهن ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين، والملائكة أبداً ﴿وَهُمْ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائل، لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية، سئل سعيد بن جبير عن قذف مؤمنة، هل يلعنه الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال: ذاك لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ متصل بما قبله، أي في ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - تشهد على الإنسان جوارحه وأعضاؤه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتنطق الألسنة، والأيدي، والأرجل، بما اقترفت من سيئ الأعمال، وقبيح الفعال، ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها، أنه تعالى ينطقها بقدرته، فتخبر كل جارحة منها ما صدر عنها، ففيه من ضروب التهويل، بالإجمال والتفصيل، ما لا مزيد عليه.

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة، يعطيهم الله جزاءهم الثابت العادل، وافيةً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأحوال، حسبما نطق به القرآن الكريم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي العادل الثابت، الذي لا يظلم أحداً شيئاً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه ﴿الْمُبِينُ﴾ المظهر للأشياء كما هي في نفسها، ولو تتبععت ما في القرآن

المجيد من آيات الوعيد، لا تجد شيئاً منها فوق هذا التشديد، وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي ﷺ وإبراز رتبة الصديقة في النزاهة عما نسب إليها.

﴿ الْحَيْثُتُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُونَ لِلْحَيْثَاتِ وَالطَّيْبَةُ لِلطَّيْبِينَ وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ أُولَئِكَ مَبْرُوءَاتٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

﴿ الْحَيْثُتُ ﴾ من النساء ﴿ لِلْحَيْثِينَ ﴾ من الرجال، أي مختصات بهن ﴿ وَالْحَيْثُونَ ﴾ من الرجال ﴿ لِلْحَيْثَاتِ ﴾ من النساء، لأن المجانسة من دواعي الانضمام ﴿ وَالطَّيْبَةُ ﴾ من النساء ﴿ لِلطَّيْبِينَ ﴾ من الرجال ﴿ وَالطَّيْبُونَ ﴾ منهم ﴿ لِلطَّيْبَاتِ ﴾ منهن، وحيث كان ﷺ أطيب الأطيبين، تبين كون الصديقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلان ما قيل في حقها، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ مَبْرُوءَاتٌ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بعلو الشأن، مَبْرُوءَاتٌ مما يقوله أهل الإفك في حقهم، وقيل معنى الآية: الخيئات من القول، للخيشين من الرجال والنساء، أي لا ينبغي أن تقال في حق غيرهم، وكذا الخيشون من الفريقين، أحقاء بأن تقال في حقهم خباث القول، والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين فماله تنزيه الصديقة أيضاً ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجنة، وإلى هنا تمت قصة أهل الإفك ثم بين تعالى آداب دخول البيوت، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾ وبعد ما فصل الزواجر عن الزنا، وعن رمي العفاف، شرع في تفصيل الزواجر عما يؤدي لأحدهما، من

مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن، وتعليمهم الآداب الجميلة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي لا تدخلوا على أحد في مسكنه وبيته الذي يسكنه وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ خارج مخرج العادة، التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلاّ فالمؤجر والمعير أيضاً، منهيان عن الدخول بغير إذن ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي تستأذنون من أصحابها، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيء إذا أبصره، آنست شيئاً علمته وآنسته أبصرته ﴿وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان، بأن تقولوا السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ فَإِنْ أذِنَ لَهُ دَخَلَ وَإِلَّا رَجَعَ، لما روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فليرجع»^(١) وروي عن كُرْز بن حَنْبَل قال: دخلتُ على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم، أَدْخَلَ؟»^(٢) وروى عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم» فقال الرجل: فإني خادمها، فقال ﷺ: «استأذن عليها، أتحبُّ أن تُرَى عُريانة؟»^(٣) ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتة، وخير من تحية الجاهلية، كقولهم حَيَّيْتُمْ صباحاً، أو مساءً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا وتعتظوا، وتعملوا بموجه.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٣/١١ ومسلم رقم ٢١٥٣ في قصة جرث لأبي موسى الأشعري مع عمر رضي الله عنهما، فطلب عمر منه البيّنة، وهُدِّدَ بالعقوبة إن لم يأت بها.

(٢) أخرجه أبوا داود رقم ٥١٧٧ في الأدب وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٩٦٣/٢ والطبري في تفسيره ١١٢/١٨.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي ممن يملك الإذن من أهل البيت، وعبارة النصّ هو النهي عن دخول البيوت الخالية، لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفائه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً، وأمّا حرمة دخول ما فيه النساء، والولدان، فثابت بدلالة النص، لأن الدخول حيث حُرّم مع ما ذكر من العلة، فلاّن يحرم عند انضمام ما هو أقوى - أعني الاطلاع على العورات - أولى ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْزِعُوا فَأَنْزِعُوا﴾ أي إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع فارجعوا، ولا تُلجّوا بتكرير الاستئذان، وكلّ ما يؤدي إلى الكراهة، من قرع الباب بعنف، والتصحيح بصاحب الدار، وغير ذلك، فإنه مما يقدر في المروءة ﴿هُوَ﴾ أي الرجوع ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي أطهر وأنفع لدينكم ودنياكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تدرّون، فيجازيكم عليه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطلع في بيت قوم، بغير إذنه، فقد حلّ لهم أن يفقؤوا عينه»^(١).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا﴾ أي بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل ليتمتع بها من يضطر إليها، كالرباط، والخانات، والحوانيت، ونحوها، فإنها معدة لمصالح الناس كافة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ أي فيها حق تمتع لكم،

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ٢٤٣/١٢ فتح الباري، ومسلم في الآداب رقم ٢١٥٨ وفي الحديث الشريف «كلُّ عينٍ باكيةٌ يوم القيامة، إلّا عينٌ غصّت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» أخرجه الترمذي.

كالاستئصال من الحرِّ والبرد، وإيواء الأمتعة، والبيع والشراء، والاختسال، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت، فلا بأس بدخولها بغير استئذان ممن يتولى أمرها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل للفساد.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٧).

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ شروع في بيان أحكام شاملة للمؤمنين، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً، ومفعول الأمر أمرٌ آخر، وقد حذف تعويلاً على دلالة جوابه، أي قل لهم غضوا ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي يصرفوا أبصارهم عمّا يحرم النظر إليه، ويقتصروا على ما يحلُّ، وإنما خصَّ المؤمنين بذلك، لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداءً ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، وتقييد الغضِّ «بمن» التبعية، دون الحفظ، لما في أمر النظر من السعة^(١)، وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغضِّ والحفظ ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أي أظهر لهم من دنس الريبة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء، فليكونوا على حذر منه، في كل ما يأتون وما يذرون، وفيه ترغيبٌ وترهيبٌ، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢) قال أبو العالية: كلُّ ما في القرآن من حفظ الفرج، فهو الحفظ عن الزنا، إلا ههنا فإنه تعالى أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصرُ الإنسان عليه، روي عن أبي سعيد الخدري أن

(١) فإن قيل: ما فائدة قوله «من» في غضِّ البصر، دون حفظ الفرج؟ فالجواب: فائدته أن حكم النظر أخفُّ من حكم الفرج، إذ يحلُّ النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحلُّ إلى شيء من فروجهن، فأمر الفروج أعظم وأخطر.

(٢) سورة غافر، آية: ١٩.

رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجلُ إلى عورة الرجل، ولا المرأةُ إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوبٍ واحد، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأة في الثوب الواحد»^(١). وعن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نَظَرِ الفِجَاءِ، قال: اصرف بَصْرَكَ»^(٢) وعن بريرة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»^(٣).

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَاتِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلُّ لهنَّ النظرُ إليه من الرجال، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، إذ أقبل ابنُ أمِّ مكتوم، فقال ﷺ: احتجبا منه، فقلنا يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعميا وان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟»^(٤)

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٣٣٨ باب تحريم النظر إلى العورات.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١٥٩ باب نظر الفجأة.

(٣) رواه أبو داود رقم ٢١٤٥ في النكاح والترمذي رقم ٢٧٧٧ في الأدب.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ١٧٧٩ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر والتصون عن الزنا، وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفساد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي، والخضاب، والزينة ما تضعه المرأة من حلي، أو كحل، أو خضاب، وفيه من المبالغة في النهي عن إبداء موضعها ما لا يخفى ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأمور التي لا بدَّ منها عادة، فإن في سترها حرجاً بيناً، وقيل: المراد بالزينة: مواضعها، على حذف المضاف، وما يعم المحاسن الخلقية، والمستثنى هو الوجه والكفان، لأنهما ليسا بعورة، والأظهر أن هذا في الصلاة، لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة، لا يحل لغير الزوج والمحرم، النظر إلى شيءٍ منها، إلا لضرورة كالمعالجة، وتحمل الشهادة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كانت النساء على عادة الجاهلية، يسدلن خمرهنَّ من خلفهنَّ، فتبدو نحورهنَّ مكشوفةً عارية، وتظهر قلائدهنَّ من جيوبهنَّ، فأمرن بإرسال خمرهنَّ إلى جيوبهنَّ^(١)، سترًا لما يبدو منها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي مواضع الزينة، كالعنق، والأذن، والصدر، والمعصم، فإن هذه أماكن الزينة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَاتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهنَّ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ المختصات بهنَّ بالصحبة، والخدمة، من حرائر المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، ولأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ والذميَّة والكافرة ليست من نساتنا، ولأنها أجنبية في الدين، كتب عمر رضي الله عنه إلى

(١) الخُمُرُ: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوبُ جمع جيب، وهو ما جيب من القميص، أي قطع لإدخال الرأس، والمعنى: وليلقين مقانعهن على جيوبهن، ليسترن بذلك شعورهن، وأعناقهن عن الأجانب، وفيه دليل على أن صدر المرأة ونحرها عورة، لا يجوز للأجنبي النظر إليها.

أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب، أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي من الإماء، فإن عبد المرأة، بمنزلة الأجنبي منها، قال سعيد بن المسيب: لا تغرنكم سورة النور، فإنها في الإماء دون الذكور وقيل: من الإماء، والعبيد، وهو ظاهر القرآن، روي ذلك عن أم سلمة وعائشة، وروى أنس «أن النبي ﷺ أتى إلى فاطمة بعبد، قد وهبه إياها، وعلى فاطمة ثوبٌ إذا قُتعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى ﷺ ما تلقى، قال: إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلارك^(١)» ﴿أَوْ التَّالِبِينَ غَيْرَ أُولِي الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهرمون وقيل: هم البُله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء ﴿أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي الأطفال الصغار لعدم تمييزهم ولعدم بلوغهم حدَّ الشهوة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِعُلْمِ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يضربن بأرجلهن الأرض، فيعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم، وفي النهي عن إبداء صوت الحلبي، بعد النهي عن إبداء عينها من المبالغة، والزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى، وإذا كان سماع صوت خلخالها للأجانب حراماً، كان رفع صوتها بالكلام، أو الغناء بحيث يسمعه الأجانب حراماً بطريق الأولى، لأن صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ﴿وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل، لإبراز كمال العناية بأمر التوبة، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين، عن نوع تفريط وتقصير في إقامة موجبات التكليف، لا سيما إذا كان المأمور به الكف عن الشهوات، وفي قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوجوب، وإيدان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتماً ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنالوا رضی الله، وتفوزوا بسعادة الدارين.

(١) الحديث أخرجه أبو داود من حديث أنس، وانظر تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣.

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَأَنْكِحُوا ﴾ بعدما زجر الله تعالى عن السفاح ومباديه، أمر بالنكاح ورغب فيه، فإنه مع كونه مقصوداً لبقاء النوع الإنساني، هو مزجرة عن ارتكاب الفاحشة، وأجمع السلف على أن الأمر للندب، وقيل في الآية دليل على أن تزويج الأيامي للأولياء، قلنا: الرجل لا يلي على الرجل الأيم إلا بإذنه من الأحرار، وكذا لا يلي على المرأة إلا بإذنها، لأن الأيم ينتظمهما ﴿ الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ ﴾ جمع أيم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء والأيم: العزبُ رجلاً كان أو امرأة، فيقال رجلٌ أيمٌ، وامرأة أيمٌ، والمعنى: زوجوا من لا زوج له ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ الخطاب للأولياء والسادات، واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأن من لا صلاح له منهم، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه، بل حقه أن لا يستبقه عنده، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم، وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي لا يمنع فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن فضل الله يغنيه عن المال، فإنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، وفيه وعدٌ منه سبحانه بالإغناء، لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ (١) ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ غني ذو سعة، لا ينقصه إغناء الخلائق، إذ لا نفاذ لنعمته، ولا غاية لقدرته ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه الحكمة، والمصلحة. عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرٌ متاعها المرأة الصالحة» (٢).

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧ .

﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ
يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ
مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا
عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣)

﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادئ النكاح وأسبابها، أي ليجتهد في العفة وقمع الشهوة ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي أسباب النكاح ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى، ولطف بهم، وتقوية لقلوبهم بأن فضله تعالى أولى بالصلحاء، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١) ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أي والذين يطلبون المكاتب، ليتحرروا من رقِّ العبودية، والكتاب مصدر كَاتَبَ كالمكاتب، أي يطلبون المكاتبه ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمة، وهي أن يقول المولى لمملوكه: كاتبك على كذا درهماً تؤديه إليّ وتعتق، ويقول المملوك قبلته، أو نحو ذلك فإن أداه إليه عتق ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ والأمر فيه للندب، لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها، ويجوز حالاً ومؤجلاً، وعند الشافعي لا يجوز إلا مؤجلاً ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي أمانة ورشداً، أو قدرة على أداء المال، بتحصيله من وجه حلال، وصلاحاً في الدين ﴿وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ أي ببذل شيء من أموالكم، وفي حكمه حطُّ شيء من مال الكتابة، ويكفي فيه أقل ما يتمول، وعن علي حطُّ الربع، وعن ابن عباس الثلث، وهو للندب عندنا، وعند الشافعي للوجوب، وإضافة المال إلى الله تعالى، ووصفه بإيتائه للحث على الامتثال

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٠٦/٤ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٠.

بالأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾^(١) وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب، وقيل: هو أمر نذب للعامّة، بإعانة المكاتبين، بالتصدق عليهم، ويحل ذلك للمولى وإن كان غنياً، لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله ﷺ في حديث بريرة: «هو لها صدقة، ولنا هدية» ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي إماءكم، وهذه العبارة في هذا المقام ﴿فتياتكم﴾ لها حسنٌ موقع، لقوله تعالى ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء، لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون العجائز والصغار ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي عند إرادتهن التعفف عن الزنا، لبيان شناعة عادتهن الجاهلية، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء، وهنّ يردن التعفف عنه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، روى مسلم عن جابر قال: كان عبد الله بن أبيّ ابن سلول يقول لجارسته: اذهبي فابغنا شيئاً، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾^(٢) الآية، وفيه تقييح لحالهم وبيان ما كانوا عليه من الفجور ﴿لِنَبْنِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تفعلوا ما أنتم عليه، من إكراههن على البغاء، لطلب المتاع السريع الزوال، الدنيء الكسب ﴿وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ أي ومن يجبرهنّ على الزنا، فعقوبة المُكْرَه تقع على من أكرهه، والله يغفر زلة المُكْرَه على الفعل ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لهنّ لعدم رضاهنّ، ولا يرد عليه أن المكرهه غير آئمة، فلا حاجة إلى المغفرة، لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذه بالذات، ولذا حرم على المُكْرَه القتل، وأوجب عليه القصاص.

(١) سورة الحديد، آية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٩ وأبو داود رقم ٢٣١١ في الطلاق، باب تعظيم الزنى.

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٤)

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ أي وبالله لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما بكم من حاجة إلى بيانه، من الحدود، والآداب وسائر الأحكام ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم، من القصص العجيبة ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون به، وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرمات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم المتتبعون، وإن كانت للكل.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣٥)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي الله جلّ وعلا منور الكائنات، بنوره يهدي أهل السماوات والأرض، وهذا تمثيل، حيث مثل لهديته بالنور الوضاء، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ وكثيراً ما يُطلق النور على الهدى، والظلام على الكفر، كقوله سبحانه: ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾. قال ابن عباس في تفسير الآية: أي هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتمسون ﴿ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ أي نوره الفاض منه تعالى على الأشياء وهو نور الإيمان في قلب العبد المؤمن^(١) أي صفة نوره العجيبة

(١) فإن قيل لم مثل سبحانه، نور معرفة الله تعالى، في قلب المؤمن، بنور المصباح، =

﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أي كصفة كوة غير نافذة في الجدار، مثلها في الإنارة والتنوير ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سراج ضخيم ثاقب ﴿ أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ متلألئ، وقاد، شبيه بالدر في صفائه وزهرته، شَبَّهه بالكوكب دون الشمس والقمر لأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ أي يبدأ بإيقاد المصباح من شجرة ﴿ مُبْرَكَةٌ ﴾ أي كثيرة المنافع تنبت في الأرض المباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ في إبهامها، ووصفها بالبركة، ثم الإبدال منها، تفضيماً لشأنها ﴿ لَا شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً ﴾ كالتي على ربوة أو في صحراء واسعة، فتقع عليها الشمس، حالتي الطلوع والغروب ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة، بحيث يضيء بنفسه، من غير مساس نار أصلاً ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ كلمة «لو» في أمثال هذه المواضع، لبيان تحقق ما يفيدته الكلام ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي ذلك النور نور عظيم، كائن على نور، فهو نور متضاعف، فإن المصباح إذا كان في مكان متضابق كالمشكاة كان أضواؤه، وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، كذلك الزيت، روي عن ابن عمر رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: «المشكاة جوف الرسول، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله فيه، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية، يوقد من شجرة مباركة أي شجرة إبراهيم عليه السلام» ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ أي يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿ مَنْ يَشَأْ ﴾ هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيقته، وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ﴾ في تضاعيف الهداية وفي باب الإرشاد، ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين، بنور المشكاة، تقريباً إلى أفهامهم، وتسهيلاً لسبيل

= دون نور الشمس؟ فالجواب لأن المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن، فناسب التمثيل له بنور المصباح في كوة الجدار.

إدراكهم، ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو باطناً، والفطرة الإنسانية قد يعترها الزيغ في الأكثر، فلا بدّ من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى، فتكون منزلة الآيات القرآنية عند عين العقل، بمنزلة نور الشمس عند عين الباصرة، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾^(١).

﴿ فِي بُيُوتٍ أَدْنَىٰ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُمْ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾^(٣٦).

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ المراد بالبيوت المساجد كلها، حسبما روي عن ابن عباس، وقيل: هي المساجد التي بناها الأنبياء عليهم السلام، كالكعبة، وبيت المقدس، ومسجد المدينة، وتنكيرها للتفخيم ﴿أَدْنَىٰ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي أمر ببنائها رفيعة لعبادة الله تعالى فيها ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ﴾ المراد باسمه تعالى ما يعمُّ طرق العبادة، أي يعبد فيها الله بذكره، وتلاوة آياته البينات، ومجالس الفقه، وحلق الذكر، الخ ﴿يُسَبِّحُ لَهُمْ فِيهَا﴾ أي يُنَزِّهه ويقُدِّس، ويصلي فيها لله سبحانه ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء وسائر الأوقات.

﴿ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾^(٣٧).

﴿ رِجَالٌ ﴾ خصَّ الرجال بالذكر، لأن النساء لسن من أهل التجارة ﴿لَا لُئْلِيهِمْ﴾ صفة للرجال مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح ﴿تِجَارَةٌ﴾ أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة

(١) سورة التباين، آية: ٨.

﴿وَلَا يَبِيعُ﴾ أي لا يلهيهم البيع والشراء عن عبادة الله وإن كان في غاية الربح ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ أي إقامتها لمواقبتها من غير تأخير ﴿وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي المال الذي فرض إخراجها للمستحقين، وإيراده هنا لكونه قرينة للصلاة لا يفارقها، على أن محاسن أعمالها غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني هؤلاء الرجال وإن بالغوا في ذكر الله وطاعته، فإنهم مع ذلك خائفون، وليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد ﴿ثُمَّ نُقَلِّبُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي تضطرب وتتغير في. أنفسها من الهول، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يفعلون ما يفعلون، من المداومة على العبادات ليجزيهم الله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعد لهم، بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعدهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وهو سبحانه يعطي عطاءً واسعاً، بلا حد ولا عد، من شاء من عباده، وفيه التنبيه على أن مناط الرزق المذكور، محض مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعٍ يَحْسَبُهُ الْظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما ذكر تعالى جزاء المؤمن ومآله، ذكر جزاء الكافر وخسرانه، أي وأمّا الكافرون الجاحدون لفضل الله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ أي فإن أعمالهم التي هي من أعمال البر، كصلة الأرحام، وسقاية الحاج، ونحو ذلك ﴿كِرَابٍ﴾ وهو ما يُرى في الفلوات، فيظن أنه ماء من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ﴿يَقِيعَةٍ﴾ أي كائن في قاع، وهي الأرض المنبسطة المستوية ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً، وهذا تكميل للتشبيه في شدة الخيبة، عند ميسس الحاجة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي لم ير شيئاً، لا ماءً ولا شرباً، وإنما شاهد شرباً فعظمت حسرته ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوقه جزاء عمله، وهكذا إذا جاء الكفرة يوم القيامة، بأعمالهم التي كانوا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا الله، أي حكمه وقضاه عند المجيء، فأعطاهم حسابهم وعذابهم وافيأً كاملاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١) وقوله: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (٢).

﴿أَوْ كُظِّمَتِ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمٌ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

﴿أَوْ كُظِّمَتِ﴾ كلمة «أو» للتنويع، مثلت أعمالهم القبيحة، التي ليس فيها شائبة خيرية، بظلمات كائنة ﴿فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ أي عميق، منسوب

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

إلى اللُّجِّ وهو معظم ماء البحر البعيد القعر ﴿يَغْشَاهُ﴾ أي يستره ويغطيه بالكلية ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي يغشاه أمواج متراكمة، بعضها على بعض ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي فوق ذلك الموج، سحب ظلماني، ستر أضواء النجوم، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظَلُمْتُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي متكاثفة، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات، كما أن قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ بيان لقوة النور ﴿إِذَا أُخْرَجَ﴾ أي من ابتلي بها ﴿يَكْدُمُ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر إليها ﴿لَوْ يَكْدِرُهَا﴾ وهي أقرب شيء منه لشدة الظلمة ﴿وَمَنْ لَّرَجَعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ أي ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره، الذي هو القرآن، ولم يوفقه للإيمان به، بسبب أفعالهم وأفكارهم الشنيعة ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ نُورٍ﴾ أي فما له هداية ما من أحد أصلاً، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه: أحدها ثلاث ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وللكافر ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، وثانيها شبه بها ظلمة قلبه، وظلمة سمعه، وظلمة بصره، فهو كالأعمى الأصم الأبكم، وكالبهيمة التي لا تعقل ما يفعل بها^(١).

(١) ضرب الله سبحانه مثلين للكفرة ولأعمالهم: المثل الأول يقتضي بطلان أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالاً صالحة، فلم ينتفعوا بها، فشبه أعمالهم في ضياعها وفقدان ثمرتها، بسراب في مكان منخفض، ظنه العطشان ماءً، فقصدته وأتعب نفسه في الوصول إليه، حتى إذا جاء إلى مكان السراب الذي تخيَّله، لم يجد شراباً ولا ماءً، وظهرت له الحقيقة أنه سراب، ففقد أمله في النجاة، كذلك الكافر يظن أن عمله نافع، حتى إذا أفضى للأخرة وجده هباءً منثوراً، وإلى هذا المثل الإشارة بقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة...﴾ الآية، أما المثل الثاني فقد شبه تعالى أعمال الكفار بالظلمات المتكاثفة التي لا يرى معها الإنسان شيئاً، وبخاصة إذا كان في وسط البحر، وغطت ظلمات السحاب كل شيء حوله، وعلاه الموج من كل مكان، فصار الظلام حوله شبحاً مخيفاً، بحيث لا يكاد يرى يده وهي أقرب شيء إليه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أو كظلمات في بحر لجي =

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلِّ قَدِّ
 عِلْمَ صَلَاتِهِمْ وَسَبِّحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، للإيدان بأنه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور، وبيّن له أسرار الملك والملكوت، أدقها وأخفاها، والهمزة للتقرير، أي قد علمت علماً يقينياً بالوحي والاستدلال ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَكُمْ ﴾ أي ينزّهه تعالى على الدوام، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ينزهه عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ما فيهما من العقلاء وغيرهم، فإنّ كلّ موجود من الموجودات، من حيث ماهيته ووجوده، يدلُّ على وجود الصانع الواجب الوجود، المتصف بصفات الكمال، وقد نبه على كمال قوة الدلالة، بما يخصُّ العقلاء من التسبيح، الذي هو أقوى مراتب التنزيه، تنزيلاً للسان الحال، منزلة لسان المقال، كأنّ كلّ شيء عاقل ناطق، ومخبر صادق، يسبِّح الله تعالى، وخلق العقلاء أشد دلالةً على وجود الصانع تعالى، لأن الغرائب في خلقهم أكثر، وهي العقل، والنطق، والفهم ﴿ وَالطَّيْرِ ﴾ تخصيصها بالذكر، لاستقلالها بصنع بارع، حيث تسبح في جو السماء تسبح الله ﴿ صَفَاتٍ ﴾ أي تسبِّحه تعالى، حال كونها صفات أجنحتها، فإن إعطائه تعالى للأجرام الثقيلة، ما تتمكن به من الوقوف في الجو، والحركة كيف تشاء، حجة نيرة، وآية بينة، دالة على كمال قدرة الصانع جلّ وعلا ﴿ كُلِّ قَدِّ عِلْمَ صَلَاتِهِمْ وَسَبِّحَهُ ﴾ أي كل من الملائكة، والإنس، والطير، قد أرشده الله وهداه لطريقته ومسلكه في عبادة ربه، والضمير يعود إلى الطير ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي عالم بما يفعلونه، لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم

= يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ﴿ الآية، وإنه لتشبيهه بديع في منتهى الجمال والروعة، فالكافر كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وقيل: الضمير، يعود على الله، أي قد علم الله صلاة كل واحد، ممّا في السماوات والأرض، وتسيّحه، ولا غرابة أن تسبّح الطير، والأشجار، والأنهار، فكلُّ ما في الكون يسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١) وقال بعض المتفلسفة: إذا كانت الطير عارفة بالله، كانت كالعقلاء، لكنها ليست كذلك، لأنها أشد نقصاناً من الصبي، الذي لا يعرف، وإذا ثبت أنها لا تعرف الله، استحال كونها مسبّحة له بالنطق، فثبت أنها لا تسبّح الله إلّا بلسان الحال، وللدرد على هذا نقول: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم بعض الحيوانات، أعمالاً لطيفة، يعجز عنها العقلاء، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يُلهمها معرفته، ودعاءه، وتسيّحه، فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل، في اصطيد الذباب، وفي النحل وما لها من الرياسة، وبناء البيوت، وانتقال الكركي واللقاق من أطراف العالم، والخطاف صانع جيد في اتخاذ العش، وناقر الخشب ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دوداً ونحو ذلك، فإلهامه تعالى لكل نوع من المخلوقات علوماً دقيقة، لا يكاد يهتدي إليها جهاذة العلماء، مما لا سبيل إلى إنكاره، فلماذا ينكر الجاحد تسيّح الطيور والأشجار؟.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إلى الله وحده مصير الخلائق جميعاً، فيجازيهم على أعمالهم، واللفظ مع وجازته، فيه دلالة على تمام علم المبدأ، والمعاد.

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ، وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ أي يسوقه إلى حيث يشاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي بين أجزائه، بضم بعضها إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ أي متراكماً، والرُّكْمُ جمعك شيئاً فوق شيء، حتى تجعله مركوماً ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي المطر إثر تراكمه ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ ﴾ من فتوقه ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي ينزل من الغمام، فإن كل ما علاك سماء ﴿ مِنْ جِبَالٍ ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال في العظم، كائنة ﴿ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ أي ينزل من السماء من جبال، فيها بعض برد، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت إن كانت قليلة وكان في الهواء ما يحلل ذلك البخار، فحينئذ ينحل وينقلب هواءً، وإن كان كثيراً ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، واجتمع هناك صار سحاباً، وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل برداً، وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى، ومشيئته المبنية على الحكم، والمصالح ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بما ينزله من البرد ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يصيبه به فيناله ما يناله من ضرر، في نفسه وما له ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، من حيث إنه توليد للصد من الصد، لأن البرق لا بد أن يكون من نار، والثَّارُ ضد الماء.

﴿ يَقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ يَقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ بالمعاقبة بينهما، وبنقص أحدهما وزيادة الآخر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فصل آنفاً ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ للدلالة واضحة على

وجود الصانع، ووحدته، وكمال قدرته ﴿لَأُولَى الْأَبْصَارِ﴾ أي لمن له بصرٌ وبصيرة، وهذا من الدلائل على ربوبيته ووحدانيته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدبُّ على الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ هو أحد العناصر الأربعة، أو من ماء مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية والديدان، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، بطريق الاستعارة ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس، والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالدوابِّ، والوحش ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر وممَّا لم يُذكر على ما يشاء من الصور، والهيئات، والحركات، والطباع مع اتحاد العنصر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل الله ما يشاء كما يشاء، من الصور والأعضاء.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ وهو القرآن وما فيه من الدلائل البيِّنات، لكل ما يليق ببيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أن يهديه، بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشاده إلى التأمل في مطاوبها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الموصل إلى الحق، وإلى الفوز بالجنة.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعنا ثمَّ يتولَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ نزلت في «بشر» المنافق، وكان قد خاصم يهودياً في أرض، وكان اليهودي يدعو إلى رسول الله ﷺ، والمنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف زعيم المنافقين، فيأبى أن يتحاكم إلى الرسول ﷺ ﴿ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ وَاطعنا ﴾ أي أطعنا أمر الله ورسوله ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى ﴾ عن قبول حكمه ﴿ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعدما صدر عنهم من ادعاء الإيمان ﴿ وَمَا أَوْلَيْتِكَ ﴾ أي وما أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام، أي من المعهودين بالإخلاص .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي إلى حكم الله ﴿ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنه ﷺ المباشر حقيقة، والحكم حكم الله سبحانه ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة، لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه ﷺ يحكم بالحق، وهو شرح للتولي والإعراض .

﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ لا عليهم ﴿ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي منقادين والإذعان: الإسراع في الطاعة والانقياد، أي يسرعون لجزمهم أنه ﷺ يحكم لهم، لأنهم في هذه الحالة على حق .

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتَهُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ أفي قلوبهم مَرَضٌ ﴾؟ أي كفر ونفاق ﴿ أَمْ أَرْتَابُونَ ﴾؟ في نبوته ﷺ مع ظهور حقيقتها ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾؟ أي أم أنهم يخافون أن يجور رسول الله ﷺ عليهم في الحكم؟ ثم أضرب عن الكل، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿ بَلْ أَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي بل هم ظلمة فجرة، كاملون في الظلم والعناد، ولذلك يعرضون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥١).

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية بيان لحقيقة الإيمان، وصفة المؤمن، أي إنما كان الواجب عليهم، والقول الصادر عن المؤمنين الصادقين ﴿ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بينهم وبين خصومهم، ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي أن يقولوا سمعاً وطاعة، ويسارعوا إلى قبول حكمه ﷺ وهكذا شأن المؤمن ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدق القول ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٥٢).

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله، أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، في كل فعل وعمل، ويقبل بحكم الرسول ﷺ مع التسليم والإذعان ﴿ وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ أي يخاف الله تعالى على ما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما يستقبل ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم، لا من عداهم، وهي جامعة لأسباب الفوز والسعادة، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية شافية، فتلّيت له هذه الآية، لأنها جمعت أصول الإيمان، والطاعة، وأسباب السعادة!

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالآيمان الفاجرة، أي أقسموا بالله بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة ﴿ لَئِن أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروج إلى الغزو ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي ليخرجن معك للجهاد، وحيث كانت مقاتلهم هذه كاذبة، أمر ﷺ بردها ﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم ﴿ لَا تُفْسِمُوا ﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة، وأفعالكم تكذب أقوالكم ﴿ طَاعَةً مَّعْرُوفَةً ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة، لأن طاعتكم طاعة نفاقية، لا إيمانية، لأنها باللسان دون القلب، وإنما عبر عنها «بمعروفة» للإيدان بأن كونها كذلك، مشهورة ومعروفة لدى كل أحد ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب، وما تضمرونه من النفاق والضلال.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينِ ﴾ .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر لإبراز كمال العناية به، فإن شأن المؤمن الاستجابة لله ورسوله وطاعتهما ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ خطاباً للمأمورين بالطاعة، من جهته تعالى، واردة لتأكيد الأمر بها، والحمل عليه، بالترهيب والترغيب، أي إن تولوا عن الطاعة ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ ﴿ وَمَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي ما أمر به من التبليغ، ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي ما أمرتم به من الطاعة، والتسليم، ولعل التعبير بالتحميل، للإشعار بثقله، وكونه مؤنة باقية في عهدتهم، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينِ ﴾ أي

وإن أطمعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق النجاة والسعادة، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، لا وضع الإيمان في قلوب الناس.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ استئناف مبين لتفاصيل ما أجمل فيه من الوعد، أي وعد الله عباده المؤمنين، كل من اتصف بالإيمان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي وعملوا في هذه الدنيا الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله وطلباً لرضوانه ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء، متصرفين في الأرض، تصرف الملوك في ممالكهم ﴿ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عز وجل في فلسطين، بعد إهلاك الجبابرة ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ أي وليجعلنَّ دينهم ثابتاً، عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان، وهو الدين الذي ارتضاه لهم بقوله: ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ بحيث يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل شؤونهم، والتعبير عن ذلك بالتمكين الذي جعل الشيء مكاناً لآخر، للدلالة على كمال ثبات الدين، ورصانة أحكامه، وتشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ أي من الأعداء ﴿ أَمْنًا ﴾ حيث كان أصحاب النبي ﷺ قبل الهجرة خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا يصبحون في السلاح، ويمسون كذلك، حتى قال رجل منهم: ما يأتي يوم علينا، نأمن فيه؟ فأنزل الله هذه الآية، وأنجز وعده له، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حال يخافهم كلُّ من عداهم، وفيه من الدلالة على صحة

النبوة، للإخبار بالغيب ﴿يَعْبُدُونِي﴾ أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري، وهو مفيدٌ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ أي يعبدونني غير مشركين معي في العبادة أحداً ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي اتصف بالكفر، ولم يتأثر بما مرَّ من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد، كفر مستأنف، زائدٌ على الأصل، أو كفر بعد الإيمان ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد ذلك الوعد ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء عن الحق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق والطغيان، والاستخلاف الذي وُصف، إنما كان في أيام، أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، وحصل له التمكين، والأمن، وظهور الدين.

قال الروافض: نحمله على الأئمة الإثني عشر، وهو باطلٌ، لأن قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ يدلُّ على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين في زمن النبي ﷺ وما وعدهم به من القوة والشوكة لم يوجد في الأئمة الاثني عشر، وقال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة، الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه فلما فعلوا ذلك غيَّر الله تعالى حالهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أدوا يا معشر المؤمنين الصلاة التي فرضها الله عليكم، وادفعوا زكاة أموالكم إلى الفقراء والمساكين، وأطيعوا نبيكم محمداً ﷺ في سائر ما أمركم به، لتنالوا رحمة الله.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ حَالٍ مِنْ أَطَاعِهِ ﷺ، عَقَّبَ ذَلِكَ بَيَانِ حَالٍ مِنْ عَصَاهُ، وَمَالَ أَمْرَهُ، تَكْمِيلًا لِأَمْرِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَالْخَطَابِ إِمَّا لِلرَّسُولِ ﷺ، أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ يَصْلِحُ لَهُ، كَائِنًا مِنْ كَانَ ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي لَا تَحْسَبْنَهُمْ مُعْجِزِينَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، عَنْ إِدْرَاكِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، فِي قَطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِمَا رَحِبَتْ، وَإِنْ هَرَبُوا فِيهَا كُلَّ مَهْرَبٍ ﴿ وَمَأْوِنُهُمُ النَّارُ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى جُمْلَةِ مَقْدَرَةٍ كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ رَبَّهُمْ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُمْ مَدْرُكُونَ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَفِي إِيرَادِ النَّارِ بَعْنَوَانِ كَوْنِهَا مَأْوَى، إِثْرَ نَفْيِ قُوَّتِهِمُ بِالْهَرَبِ، مِنْ الْجِزَالَةِ مَا لَا غَايَةَ وَرَاءَهُ، فَاللَّهُ دُرٌّ شَأْنِ التَّنْزِيلِ ﴿ وَكَيْتَسُ الْمَصِيرُ ﴾ جَوَابٌ لِقَسْمِ مَقْدَرٍ، أَي وَبِاللَّهِ لِبَشْسِ الْمَصِيرِ وَالمَسْكَنِ نَارِ جَهَنَّمَ، وَالجُمْلَةُ جَوَابٌ مُقَرَّرٌ لِمَا قَبْلَهُ.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذِنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ رَجُوعٌ إِلَى بَيَانِ تَتِمَّةِ الْأَحْكَامِ السَّابِقَةِ، بَعْدَ تَمْهِيدِ مَا يُوجِبُ الْإِمْتِثَالَ بِالْأَوْامِرِ وَالنَّوَاحِي، الْوَارِدَةِ فِيهَا، رُوِيَ أَنَّ غَلَامًا لِأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي مَرْثَدٍ، دَخَلَ عَلَيْهَا فِي وَقْتِ كَرِهَتِهِ، فَتَزَلَّتْ ﴿ لِيَسْتَعِذِنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ مِنْ الْعَبِيدِ وَالجَوَارِي، وَظَاهَرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ الْبَالِغُونَ، وَالصَّغَارُ، وَعَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَا يَغْرَنُكُمْ قَوْلُهُ: ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَنْظُرَ عَبْدُهَا إِلَى قَرَطِهَا، وَشَعْرِهَا، وَشَيْءٍ مِنْ مُحَاسِنِهَا، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ

الصغار ﴿وَالَّذِينَ لَا يَلْعَنُوا أَلْحُلْمَ﴾ أي الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ،
 والتعبير عنه بالحلم، لكونه أظهر دلائله ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من الأحرار ﴿ثَلَاثَ
 مَرَاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم والليل، لأنه تعالى فسرها بالأوقات،
 وإنما قيل ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنه تعالى أراد مرة في كل وقت ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ
 الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب
 اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ التي تلبسونها في النهار، وتخلعونها لأجل
 القيلولة ﴿مِنْ الظَّهْرِ﴾ وهي شدة الحر، عند انتصاف النهار، والتصريح
 بوضع الثياب في هذا الحين، لما أن التجرد عن الثياب فيه قليل، أمّا في
 الوقتين المذكورين، فالتجرد متحقق ومعروف لا يحتاج إلى التصريح
 ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ ضرورة أنه وقت للتجرد عن اللباس، والالتحاف
 باللحاف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات هي التي يبدو فيها انكشاف
 العورة، وقيل للسوء عورة: لقبح النظر إليها، وكل شيء يستره الإنسان
 أنفة وحياء، عورة أطلقت على الأوقات المذكورة مبالغة، كأنها نفس
 العورة ﴿لَكُمْ﴾ أي كائنة لكم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المماليك
 والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي إثم في الدخول بغير استئذان، لعدم ما يوجهه من
 مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من
 تلك العورات، وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منهن ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ
 بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بيان للعدو وتعليل له، أي لأنهم خدّمكم يطوفون
 عليكم للخدمة، ولو كُلفوا بالاستئذان في كل مرة، لضاق الأمر عليهم،
 ومعنى الطواف: الدّوران، أي يمضون ويجيئون عليكم لخدمتكم، ولهذا
 رخص تعالى لهم في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضرورية، وفيه دليل
 على تعليل الأحكام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾
 الدالة على الأحكام، يعني ينزلها بينة واضحة الدلالة عليها، لا أنه تعالى
 بينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع
 المعلومات، فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه
 صلاح أمركم، معاشاً ومعاداً.

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ﴾ لما بيّن حكم الأطفال، في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، عقب بيان حالهم بعد البلوغ، أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب سن الرشد ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي فليستأذنوا في جميع الأوقات ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرهه للتأكيد والمبالغة في أمر الاستئذان .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أي النساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض، والحمل، ﴿ وَالْقَوَاعِدُ ﴾ جمع قاعد، لأنها من الصفات المختصة بالنساء، كالحائض ﴿ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي إذا بلغن في السن، بحيث لا يرغب فيهن الرجال لكبرهن، وهي العجوز التي إذا رآها الرجل لم يشتتها، أما من فيها بقية جمال فهي محل الشهوة، فلا تدخل في حكم هذه الآية، وإنما خصهن الله بذلك، لأن التهمة مرتفعة عنهن ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه، والملحفة التي فوق الخمار، وأما الخمار فلا يجوز إزالتها ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمر الله بإخفائها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ ﴾ بترك الوضع ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ من الوضع لبعده من التهمة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يعلم خفايا

النفوس، فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيعلم مقاصدهن، وفيه من الترهيب والوعيد ما يكفي اللبيب.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الحرج في اللغة: الضيق، ومعناه هنا الإثم، وقد كان هؤلاء الطوائف، الأعمى، والأعرج، والمريض، يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء، حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيتهم، بأفعالهم وأوضاعهم، وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم، أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتخرجون من الأكل معهم، ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره، وكذا كانوا يتخرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو، وخلقوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفَعوا إليهم مفاتيحها، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافة أن لا يكون إذنتهم عن طيب نفس، فقيل لهم: ليس على الطوائف المعذورة إثم ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي عليكم وعلى ما يماثلكم من المؤمنين حرج ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها عيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيتهم كبيتته،

لقوله (ﷺ): «أنت ومالك لأبيك» ولأنه سبحانه عدّد الأقارب، ولم يذكر الأولاد، وإذا كان السبب في الرخصة هو القرابة، كان الذي هو أقرب منهم أولى ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَّفَاحِيهُ﴾ من البيوت التي تملكون التصرف فيها، بإذن أربابها، على الوجه الذي مرّ بيانه، ومثله وكيل الرجل في ضيعته أو ماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من أثر ضيعته، ويشرب من ماشيته ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرُّ به من كثير من الأقرباء، ويحكى عن الحسن البصري رحمه الله أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه، قد أخرجوا من تحت سريره، سلالاً من أطياب الأطعمة، وهم مكبّون عليها يأكلون، فتهلّلت أسارير وجهه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، يريد كبراء الأصحاب رضي الله عنهم، والصّدِيقُ: يقع على الواحد والجمع، والصديق الصادق اشتقاقه من الصدق، لأنه أخلص الودّ والنصح لصاحبه، وهذا فيما إذا علم رضاء صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، ونُحِصَّ هؤُلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ حكم آخر من جنس ما قبله، فقد كان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكلة لم يأكل شيئاً، فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا. أشتاتاً جمع شتّ بمعنى مفترق، والشتات: الفرقة، أي ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ من البيوت المذكورة، وهو بيان للآداب الاجتماعية ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية، وإن دخلتم بيوتاً فارغة، أو مسجداً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه ﴿مُبْرَكَةً﴾ باركها الله تعالى لزيادة

الخير والثواب ودوامها ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع، وصفها بالبركة، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن، يرجى بها زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ما فيها من الأحكام الشرعية، وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله، مع تضمنه «المؤمنون» تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيضاحاً بأن حقيقة الإيمان، الإيمان بهما معاً ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان، الذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوهما في جميع الأحكام، وإذا كانوا معه ﷺ على أمرٍ مهم، كالحروب، وغيرها، من الأمور الداعية إلى الاجتماع من أهل الآراء والتجارب، ووصف الأمر بأنه «جامع» للمبالغة في أهمية الأمر ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي لم يتركوا مجلسه عليه السلام ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ في الذهاب فيأذن لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا توكيد لما تقدم تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، وهذا يفيد أن المستأذن مؤمن، وأن الذاهب لغير إذنه ليس كذلك ﴿فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ﴾ أي فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون لبعض شؤونهم ومهامهم الضرورية ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض ما يعرض لهم من المهام ﴿فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذا علمت في ذلك حكمة ومصلحة، واستدل به على أن بعض الأحكام، مفوضة إلى رأيه ﷺ ﴿وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ لأن الاستئذان وإن كان لعذر قوي، لا يخلو من نوع تقصير، لتقديم

أمر الدنيا، على أمر الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ مبالغ في مغفرة خطايا العباد ﴿رَحِيمٌ﴾ مبالغ في آثار الرحمة عليهم، وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم وعلمائهم في الدين، يظاهرونهم، ولا ينفرون عنهم.

قيل: نزلت يوم الخندق حيث كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم، من غير استئذان من النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تجعلوا دعوته، وأمره إياكم لما فيه عز الدين، وصلاح الأمة ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضهم بعضاً في جواز الإعراض، والتساهل في الإجابة، والرجوع بغير إذن، وتكون الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (١) الآية، وقيل: لا تجعلوا دعاءه ﷺ ربه، كدعائكم، فإن دعاءه ﷺ مستجاب لامرء له عند الله عز وجل، وقيل: المعنى: لا تجعلوا نداءه كنداء بعضهم بعضاً، باسمه، ورفع الصوت، ولكن وقروه وعظموه، فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم، مع خفض الصوت والتواضع، فتعظيمه تعظيم الله عز وجل لأنه رسوله (٢). ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) الآية إنما وردت في بيان مقام الرسول ﷺ ووجوب التأدب في حضرته، وفي مخاطبته، فالغرض توقير النبي وإجلاله، وليس الغرض أن دعاءه ﷺ مستجاب لامرء له، فذلك أمر مقطوع به، ولكنه بعيد عن فحوى الآية، قال الفراء في معانيه ٢/٢٦٢: أي لا تدعوه بقولكم يا محمد، كما يدعو بعضهم بعضاً، ولكن وقروه =

الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ ﴿١٦﴾ وعيد لمخالفتي أمره ﷺ، والتسلُّلُ: الخروجُ من البين بطريق المراوغة والخفية، و «قد» للتحقيق، أي يعلم الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً، على سبيل الخفية، لئلا يراه أحد ﴿لَوْ أَدَّأ﴾ أي ملاوذةً بأن يتسَّر بعضهم ببعض حتى يخرج، وهكذا كان المنافقون ينصرفون عند حفر الخندق، ويثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة، فيخرجون في استتار ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي يخالفون أمره ﷺ بترك مقتضاه، ويتركون منهجه، وسنته وطريقته، والضمير للرسول ﷺ لأنه المقصود بالذكر ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة شديدة في الدنيا بقتل، أو زلازل، أو تسليط سلطان جائر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة وكلمة «أو» لمنع الخلوِّ دون الجمع، وإعادة الفعل للاعتناء بالتهديد والتحذير، واستدل به على أن الأمر للإيجاب، فإن ترتب العذابين على مخالفته ﷺ يوجب الامتثال به حتماً.

﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها، ملكاً، وخلقاً، وتصرفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة، والإخلاص والنفاق، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟ ﴿وَيَوْمَ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون للجزاء والعقاب ﴿فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض

= وعظموه، فقولوا يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، وكذلك قال الحافظ ابن كثير ٩٦/٦ وهو الأنسب بالسياق والله أعلم.

ولا في السماء، لأن الكلَّ خلقه ويملكه. وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها «لا تُنزلوا النساء العُرف، وعَلْموهنَّ الغزل، وسورة النور» وروي أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسَّرها على وجهٍ لو سمعتِ الرومُ به لأسلمت. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النور»
